ISSN: 1112-9212 / EISSN 2602-5043	2022 (02) 15 (203،187) مجلة تطوير العلوم الاجتماعية
تاريخ النشر: 2023/03/03	تاريخ الاستلام: 2022/12/31 تاريخ القبول: 2023/03/01

التّضاد والتّوافق الاجتماعيّ وأثره في النّموّ الحضريّ

Social antagonism and harmony and its impact on urban growth

أ.د. حاج بنيرد [1] *

[1] جامعة مولود معمري، تيزي وزّو (الجزائر).

ملخص: البحث يهدف إلى محاولة التّنظير في مفهوميّة التّحضّر والمعايير الّتي يُحتكم فيها إلى تحديد معاني التّمدّن وحجمه، بحيث تخضع المدينة والنّموّ الحضريّ إلى مبدأ ضروريّ؛ وهو مبدأ التّضادّ والتّوافق؛ إذ تشترك المدنيّة في هذا المبدإ بغضّ النّظر عن حجم التّمدّن وخلفياته وقناعات السّكّان ونحوها، وفي رأينا عن هذا المبدأ تنشأ جميع الثّنائيّات الّتي تحدّث عنها علماء الاجتماع الحضري، مثل ثنائيّة التّقليد والتّجديد، وثنائيّة الشّدّ والجذب عند جيمس كوين وإموس هاولي، وثنائيّة الحضر/ الرّيف؛ محاولة سوركوين وزيمرمان، تتلخّص محاولتهما في اعتبار معيار "المهنة" محكّا أساسيّا وأوّليا لمعرفة خصائص كلّ من المدينة والرّيف، نتعرّض لهذا المبدأ من وجهة نظر معرفيّة وإبستيمولوجيّة، تبحث في محدّدات وعناصر منطقيّة ورئيسيّة يتركّب منها البناء الحضاريّ بطريقة آليّة، نستطيع أن نسمّيها معايير التّمدّن، نبّه لها علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا في مختلف نظريّاتهم، ووردت مبثوثة ومتفرّقة في أعمالهم، حاولنا أن نعرضها ونعرض مختلف آراء علماء الاجتماع الحضريّ فيها، ونتعرّض لها أيضا بالشّرح والتّحليل والنّقد.

الكلمات المفتاحية: تضاد؛ توافق؛ معايير؛ مدينة؛ تحضّر.

Abstract:

The research aims at trying to theorize the concept of the city and urbanization and the criteria by which it is determined to determine the meanings of urbanization and the size of urbanization, so that the city and urban growth are subject to a necessary principle; the principle of antagonism and compatibility. From this principle, all the binoculars that urban sociologists have talked about, such as James Quinn and Emus Hawley, and the urban / rural dichotomy; Knowing the characteristics of both the city and the countryside, we are exposed to it from an epistemological and epistemological point of view. We present them and present the various views of urban sociologists in them, and we are also exposed to explanation, analysis and criticism.

Keywords: Contradiction; compatibility; urbanization; standards; city.

*Corresponding author, e-mail: hbennaired@gmail.com

مقدمة:

إنّ علم الاجتماع الحضريّ يتّسم بالتّراكميّة، يستمدّ من علم الاجتماع العامّ في منطلقاته وتصوّراته النّظريّة، الّتي تركها روّاد علم الاجتماع الأوائل مثل تونيز ((Toennies ودوركايم (Durkheim)، كما يمكن وصفه –أي علم الاجتماع الحضري– بأنّه ردّة فعل على الإرهاصات الّتي جاء بها هؤلاء وأمثالهم حول الحضارة والمدنية، وخاصّة عندما انتبهوا للظّروف المثيرة الّتي تحيط بالمدينة داخليا وخارجيا، وبالتّالي نتج عنه تصوّرات وتبلورت إلى اتّجاهات جديدة في ميدان البحث الحضريّ، منها الانفتاح على العلوم الأخرى والاستفادة منها، كالأسس الرّياضيّة وتوظيف التّكنولوجيا، وبروز الاهتمام بالجانب السّلوكيّ، وتنامي الاتّجاه البراغماتي والنّفعي بالتّطبيقات السّياسيّة للبحث الحضريّ بالموازاة مع التطوّر الشّامل سواء في التنمية الحضريّة أو المعارف والسّلوكات.

لقد صارت المدينة موضوعا مهمّا يشغل دائرة اهتمام البحث الاجتماعي الأكاديميّ منذ ما يقرب من قرن من الزّمان، فمنذ منتصف القرن التّاسع عشر قدّم فوستيل دي كولانج وصفا وتحليلا للعلاقة بين المؤسّسة الدّينيّة والمؤسّسة المدنيّة في اليونان والرّومان، وفي نهاية القرن التّاسع عشر قدّم تشارلز بوث بحثا ضخما في سبعة مجلّدات تناول فيه مدينة لندن ليكون هذا البحث مسحاً اجتماعيّا غير مسبوق، ثمّ جاء فيبر "Max Weber" وركّز على المدن ودورها في مجال التّطوّر الاجتماعيّ، واضعا تصوّرا نموذجيا يعتبر فيه المدينة مجتمعا متكاملا بفضل وظائفها المتنوّعة والمتكاملة، وأطلق عليه مصطلح "**المجتمع الحضري الكامل**"، ونجد محاولة لتحديد مفهوم التّحضّر والتمدّن من خلال نظرة تاريخانية عند جوردن تشايلد (Childe)، من خلال ما أسماه بـ "الثّورة الحضريّة المبكّرة"، وربطها بالاستيطان والكثافة السكّانيّة والمباني الضّخمة والكتابة والحساب والضرائب والنّموّ التّجاريّ ونحوها، ممّا هو من مظاهر التحضّر(السّيّد الحسيني ، 1981، ص13).

وقد كانت المدينة هاجس تولد منذ عام 1890م، ولم يصر الاهتمام بعلم الاجتماع الحضريّ مستقلّا وناضجا إلا بعد أعمال مدرسة شيكاغو (1920م–1930م)، الّتي ركّزت على العمليات الاجتماعيّة الّتي تتلازم مع الحياة الحضريّة في المدينة، مع بعض الملاحظات الّتي أضافها لويس ويرث؛ والّذي حدّد طريقة للحياة الحضريّة؛ إذ ترتبط تلك الطّريقة بالخصائص المميّزة للمدن، وفي

الخمسينيات من القرن الماضي شهدت اهتماما واضحا في تناول ظواهر المجتمع المحلّي، والنّشاط الاقتصادي فيها، والاهتمام الجغرافيّ بأنساق المدن، وفي السّتّينات انقسمت الدّراسات الحضريّة إلى عدّة مجالات، كالإيكولوجيا وغيرها، ثمّ تنامت وتيرة البحث في علم الاجتماع الحضريّ وفروعه، لتظهر اهتمامات حول سوق الإسكان في بريطانيا، باعتباره أحد المؤشّرات الحضريّة على فرص الحياة، وفي فرنسا شابت هذه الدّراسات تأثيرات إيديولوجية راديكاليّة ماركسيّة ونقديّة. ويتمثّل في معنى التّحضّر عند المنظّرين في هذا علم الاجتماع الحضريّ في مظهرين أساسيين(إدريس عزام وآخرون، 2010، ص273):

– **المظهر الأوّل:** ويتمثّل في الانتقال من حياة الرّيف أو البداوة إلى حياة المدينة بواسطة التنقّل المكاني أو الهجرة أو النّزوح الرّيفيّ، وهو ما ذهب إليه كلايد ميتشل (Clyde Mitchell)، وما يصحب ذلك من الأخذ بصنائع جديدة وحرف تناسب حياة المدينة والابتعاد تدريجيّا عن الزّراعة، طبعا وله تبعات على الاقتصاد وحياة الأفراد والمجموعات في المدينة والرّيف.

– **المظهر الثّاني:** ويتمثّل في تغيير أسلوب الحياة من نمط تقليديّ إلى نمط عصريّ جديد، دون الحركة المكانيّة، ويشير إلى هذا المفهوم جيرالد بريز (Breese Gerald)، فالحركة هنا ذهنيّة ونفسيّة واجتماعيّة، وهو ما يخلق طابع المدينة من التّناقض والتّضاد، بوجود دينامية وثنائيّة (التّقليد/ التّجديد)، أو المحافظين والحداثيّين، وهو ما يخلق أيضا مصطلحات جديدة كالحداثة، وما بعد الحداثة، والتّنوير، والتّقليد، والعصرنة ونحوها.

إنّ الهياكل الهندسيّة والتّجمّعات السّكّانيّة مسبوقة ببناء نفسي واجتماعي تقتضيها الضّرورة والمصلحة والحاجة، وهذا بحسب نظرية العمران عند ابن خلدون، وعند تفكيك هذه العناصر (الضّرورة والمصلحة والحاجة)، يتراءى لنا داخل بنية المدينة سواء عند قبل تشكّلها أو أثناءه أو أثناء تطوّرها في الحضارة والمدنية، عناصر مهمّة وضروريّة لتحقّق هذا الفضاء الإنساني الّذي تجتمع فيها مجموعة بشريّة كبيرة، وقد قدّم روبرت بارك (1864م–1944م) طرحه وتصوّره للمدينة على هذا الأساس سنة 1916م في مقال "المدينة"، واصفاً إيّاها بالظّاهرة الطّبيعيّة –تأثّرا بالمنهج الطّبيعيّ–، تنشأ بتأثير عوامل طبيعيّة متعدّدة لا يمكن السّيطرة عليها، وفق مصطلحه إيكولوجية المدينة (**Ecology of the city**)، وإنّ كلّ مدينة تنقسم إلى مناطق صناعيّة وتجاريّة وسكانيّة تتميّز كلّ منها بخصائص اجتماعيّة وثقافيّة تميّزها عن غيرها، بوصفها مكاناً ونظاما أخلاقيّا، فهي

عنده بناء رسميّ بهياكله، وسوق تجاريّ، وأثر نفسيّ خاصّ بها، ويؤيّده أرنست برجس (1886م-1966م)، وقد اشترك معه في كتاب (مقدّمة في علم الاجتماع)، أعتقد أنّ هذه العناصر يجمعها مبدأ التّناقض والتّضادّ والنّدّيّة، ويقابله أيضا التّوافق والتّحالف والولاء، كما أعتقد أن الشّكل الأوّل من عناصر النّشوء والتّطوّر لفضاء المدينة هو الأساس، وهو الذي تنتج عنه الحيويّة والحركية داخل هذا الفضاء في هياكله ومؤسّساته، وأقصد به عنصر التّناقض والتضاد، وبسببه أيضا ينتج العنصر الآخر، وهو التّوافق والتّحالف والولاء، وبمجموعها يتشّكل معنى الاجتماع وبالتّالي ضرورة تطوّر فضاء المدينة. وفي شكل التضاد تبرز مجموعة كبيرة من العناصر يصعب حصرها والإحاطة بها، وقد اعتمد علماء الاجتماع الحضري أساس التّناقضات أو نقول هذه التّناقضات هي الّتي أثارت انتباههم وبالتّالي بحوثهم وأعمالهم، فمثلا هنري مين يميّز بين مجتمع يرتكز على المكانة وآخر على العقد، وتونيز يفرّق بين المجتمع المحلّي والمجتمع الرّابطة، وهوارد بيكر بين المجتمع المقدّس والمجتمع العلماني، ودوركايم بين مجتمع يقوم على التّضامن العضوي وآخر على التضامن الآلي، وريدفيلد يحدّد خصائص المجتمع الشّعبيّ في مقابل خصائص المجتمع الحضريّ(السّيّد الحسيني ، 1981، ص116، 117).

كما ظهرت هذه الثّنائيّات عند أصحاب المنهج الإيكولوجي أو ما يُعرف بديناميات المدينة أو العمليات البيئيّة؛ وهي: التّركّز والتّشتّت، والمركزيّة واللامركزيّة، والغزو والتّتابع(السّيّد الحسيني، 1981، ص131)، نحاول ذكر بعضها إجمالا ثمّ نعرض لها بالتّفصيل:

- الأصيل والطّارئ.
- التّابع والمتبوع.
- الغنى والفقر.
- البذخ والتقشّف.
- الالتزام والانحلال.

1- الأصيل والطّارئ: يُبْنَى النّسيج الاجتماعي في المدن على عدّة اعتبارات، الأصيل والطّارئ أو الدّخيل، مكوّنا ثقافة تمتاز بها كلّ مدينة في العالم، وانطلاقا من هذه الثّنائيّة، تبرز حركية بين مجموعتين بشريتيّن أساسيّتين، يُفسّر بها الكثير من السّلوكيات الاجتماعيّة، كالتعالي والاحتقار

والمنافسة إظهار الذّات ومحاولة التّميّز بلكنة خاصّة في الكلام، في دور العلم خاصّة وفي المحلّات والأسواق وحتّى الجوامع. ويستمدّ الأصيل وجوده من الأقدميّة والعراقة والمِلكيّة والبعد الحضاري، وفيها يظهر الأصيل عنصرا فيما تتعدّد عناصر الدّخيل في أشكال مختلفة؛ منها أهل البوادي المجاورة للمدينة أو البعيدة عنها، ومنها أهل المدن الأخرى أو البلدان الأخرى، يشكّل كلٌّ منها فئة أو عنصرا اجتماعيا جديدا يعطي طابع المدينة باعتبارها كيانا اجتماعيا وحضاريّا، ويشترك كلّ هؤلاء الفئات المختلفة والمتعدّدة ظاهرة النّزوح، كما يشكّل الجوّ الطارئ أو الجديد صراعا بين هذه الفئات فيما بينها وفيما بين ما هو أصيل في المدينة، وقد أُجريت دراسات ميدانيّة كثيرة لدراسة ظاهرة النّزوح والأحياء الهامشيّة أو ما اصطلحنا عليه بالدّخيل، منها دراسة أنتوني ليدز "Leeds"، أنجزها حول المهاجرين إلى مدينتي ري دي جانيرو وليما في أمريكا اللاتينيّة، ولاحظ أنّه من الصعب التّمييز بين المهاجرين الرّيفيّين والمهاجرين الّذين أتوا من مدن أخرى، وأنّ كثيرا من الرّيفيّين قد اتّصلوا بالمدينة قبل الهجرة إليها من خلال العمل أو الزّيارات، وسمّاهم بالهامشيّين لحياتهم في هامش المدينة وعدم قدتهم على الاندماج فيها، وبالتّالي تنشأ لهم عادات سلوكيّة واقتصاديّة خاصّة بهم(السّيّد الحسيني ، 1981، ص184، 185).

ويعدّ ماير "Mayer" وباودرميكر "Powdermaker" من أبرز علماء الاجتماع والأنتروبولوجيا اهتمام بهذه القضية في دول العالم الثّالث، حيث نجدهما يميّزان بين فئتين من سكّان المدن في الدّول النّامية: الأولى تضمّ أولئك الّذين تخلّوا تماما عن ثقافتهم الرّيفيّة القديمة، وأمّا الثّانية فتضمّ المحافظين الّذين استوطنوا المدن وبقوا متمسّكين بثقافتهم وسلوكهم ومعتقداتهم(السّيّد الحسيني، 1981، ص111).

وتبلورت هذه الفكرة بوجه خاصّ عند أصحاب الاتّجاه السّوسيوأيكولوجي، فقد تجاوزت نظرتهم الوحدات الصّغيرة في المجتمع إلى الوحدات الكبرى فيه، أو ما اصطلحوا عليه بالأنساق الاجتماعيّة، توجد ككيانات قائمة بذاتها ذات خصائص بنيويّة يمكن دراستها بمعزل عن الخصائص الفرديّة، والحقيقة أنّ قضية الأصيل والدّخيل هي قضية ذات بُعد ثقافيّ أو قل إنّها عامل في تشكيل هوية ثقافيّة ونسق ثقافي له دور في تكوين الأنساق الاجتماعيّة، وبرز في هذا المجال جيمس كوين وإموس هاولي، وفق ثنائيّة الشّدّ والجذب عندهما(غريب أحمد، والسّيّد عبد العاطي السّيّد، 1988، ص219)، وتطوّرت مع دونكان وشور، ونظرا إلى أنّ تنظيم السكان يرتكز على الثّقافة والمجتمع،

ثمّ ضرورة التّعاون، ثمّ التّكامل الوظيفي الّذي هو سمة من سمات التّنظيم الاجتماعيّ، وعوامل البيئة والتّكنولوجيا والسّكّان والتّنظيم متغيّرات ترتبط فيما بينها لتشكّل لنا ما اصطلحا عليه بـ "المركّب الأيكولوجي" "Ecological complex". وتدخل في هذا الإطار ثنائيّة (الرّيف/الحضر) –وقد حلّلها باودرميكر وفق نسق المعتقدات–، وهو يشكّل بشكل أساسيّ نواة التّكتّلات الاجتماعيّة داخل المدينة، وما يترتّب عليها من سلوكات وآداب تخلق ذلك التّضادّ والنّزاع والصّراع الهادئ، والّذي هو سمة بارزة في سلوكيات المدينة، أو نستطيع القول بأنّها ضروريّة في تشكيل صورة المدينة، بين خشونة ورعونة أهل البادية ويقابله الحيلة والمكر عند الحضريّين، ويدخل بينها قنوات تواصليّة كثيرة، تتمثّل في الضّرورة والحاجة، بحيث لا تكتمل دورة الحياة الاجتماعيّة في المدينة إلّا بها، بقدر ضرورة وجود النّقل أو الحراك المادّي أو المواصلات بين هذه التّجمّعات البشريّة للتّجارة ونقل البضائع وشحن الأسواق وتلبية الحاجات المادّية(رالف بيلز، وهاري هويجر، 1976، 9/1)، يُقابله تلك الحاجات السّلوكيّة والمعنويّة والنّفسيّة في التّواصل وما يصحبه من أخلاقيات تسير وفق طبيعة الاختلاف البشريّ، وهي في المفهوم الدّينيّة سنّة كونيّة لا تتمّ عمارة الأرض إلّا بها (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ اَلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) [هود: 118،119]، وبالتّالي فمبدأ الاختلاف أو التّضاد والتّناقض هو أساس العمران أو تكوين البنية الاجتماعيّة والنّفسيّة للمدينة أو الحضارة. وتوالي الهجرات الرّيفيّة يخلق ما يُعرف بالتّضخّم الحضريّ "Overurbanization"، وأثّر على نوعيّة المدينة من حيث الإنتاج والاستهلاك، ممّا يتسبّب في مدينة فاعلة منتجة وأخرى قليلة الإنتاج يكثر فيها الاستهلاك، أو باصطلاح هوسيلتز "Hoseltz"، المدن المنتجة "generative"، والمدن الطّفيليّة "parasitic".

2- التّابع والمتبوع: وإن كانت المتبوعيّة ملازمة للوجود البشريّ، تبدأ من الأسرة بتبعية الزّوجة لزوجها، والأولاد لوالديهم، وهي رابطة فطريّة لا يمكن تصوّر عدمها، إلّا أنّه مع اتّساع العمران والحضارة ونشوء المدن، تتطوّر معه مفاهيم التّابع والمتبوع على أسس مختلفة وأشدّ تعقيدا بخلاف الرّابطة الأسريّة التّي رابطة فطريّة أو ساذجة، إلّا أنّه في المدن قد تكون هذه المتبوعيّة عبارة عن قيم أو عن معان أو حتّى أشياء وهميّة، تشكّلت وتبلورت مع تشابك النّسيج الاجتماعيّ وتراكمات ماضيه وحاضره وهواجس مستقبله، وبها يُقاس التّمدّن الاجتماعيّ، ولذلك نجد التّبعيّة تأخذ أنماطا مختلفة ومتباينة، وأحيانا متناقضة أو متصادمة، تبعا لتعدّد المجموعات البشريّة المختلفة واختلاف

قناعاتها ومرجعياتها، وفقاً لما اصطلحنا عليه بعنصر التّناقض والتّضاد في بناء المجتمع المدني، وهو ضروريّ في تسمية هوية المدينة اجتماعيا. ولذلك نرى تفكّك النّسيج الأسري في مقابل العلاقات الجديدة أو الولاءات الجديدة، فبقدر نضوج المجتمع المدني تتفكّك فيه التّبعيّات القديمة والتّقليدية من الولاء للأسرة والقبيلة والعرش إلى استحداث تبعيات جديدة كالولاء للقيم والأفكار والإيديولوجيا على اختلافها وتباينها وتعدّدها، أو نقول انحصار العلاقات القديمة والتّقليدية في بعض زوايا المدينة، أو يمكننا أن ندرج عنصرا فعّالا في بنية المدينة، وهو التّنوّع والتّعدّد، بحيث يصير مطلبا حتميا في دينامية المجتمع المدني، وبالتّالي بروز مصطلحات مواكبة لذلك؛ كالتّغيير والمحافظة على الموروث والرّجعيّة والعصرنة والموضة ... الخ. وقد ذهب بيير بورديو "Pierre Bordieu" في مقاربته إلى القول بأنّ العلاقات الاجتماعيّة بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع تقوم على علاقات القوّة من نمط مسيطر ونمط مسيطر عليه، والّتي تستند حسبه إلى التّوزيع غير المتساوي لرأس المال داخل الحقل الاجتماعي، فيما يرى بأنّ رأس المال –وهو عنصر القوّة– لا ينحصر في الجانب المادّي؛ بل يشمل المال والثّقافة والشّهرة وحجم العلاقات الاجتماعيّة(هنوس ناذر، 2016، ص87).

ويذهب فؤاد خوري في دراسة له على ضاحيتين لبنانيتين أنّ الهجرة الرّيفيّة إلى المدينة تؤدّي إلى تحوّل الولاء من العائلة في القرية إلى المذهب الدّيني في المدينة، كما لاحظ أنّ المذهب الدّيني يلعب دورا هامّا في تشكيل السّياسة القوميّة في لبنان، وإن كان لا يلعب مثل هذا الدّور في القرية، وما الحرب اللبنانيّة إلا دليلا على ذلك(السّيّد الحسيني، 1981، ص297).

هذا وقد تنبّه العديد من علماء الاجتماع الحضريّ إلى هذا العامل، منهم فرديناند تونيز (1855م–1936م) من خلال مؤلّفه الشّهير (**المجتمع المحلّي والرّابطة Community and society**)، وأشار فيه إلى وجود نوعين من الرّوابط الاجتماعيّة يمثّلان وجهي الحياة الاجتماعيّة، النّوع الأوّل أطلق عليه **المجتمع المحلّي**، ويتضمّن جميع العلاقات التّقليديّة والعادات والأعراف، وينشأ عنه الحسّ المشترك، الّذي يتميّز بالانسجام والألفة والتّحديد الآلي للأدوار وغياب الصّراع، ويبرز منه ما يُعرف بالوعي الجمعي، ويتمظهر في بعض التّشكيلات الجواريّة والتّنظيميّة والدّينيّة، ويُعبّر عنه دوركايم بمصطلح **التّضامن الآلي** "**Mechanical**"؛ والّذي يقوم على التّشابه والمماثلة في الطّقوس والعادات والمعتقدات، أو "التّمثّلات الجمعيّة"، يلعب فيه الميكانيزم الطّقوسيّ أو

الطّوطميّ دوراً كبيراً في تأكيد بنية الجماعة، وسمّاه بالآلي لأنّ العلاقات فيه فطريّة لا تحتاج إلى إعمال الفكر والعقل، وأمّا النّوع الثّاني فسمّاه **الرّابطة أو المجتمع**؛ ويتضمّن أشكالا متنوّعة من العلاقات الاجتماعيّة تكون معقّدة وروابطها لا شخصيّة، ووجود العقلانيّة وظهور الفرديّة، وبالتّالي ضعف الوعي الجمعي، –أو تلاشي الوعي الجمعي التّقليدي تمهيدا لنسج نسيج جمعي جديد–، وهي خصائص تنبّه لها دوركايم وفيبر، ويبرّر هذا الأخير وجوب نشوء علاقات وروابط جديدة، بالنّظر إلى طبيعة الظّروف المعيشيّة المعقّدة الّتي تتطلّب تطوير علاقات وتنظيمات اجتماعيّة مناسبة، تزيد من قيم ومشاعر التشاركيّة الهادفة، وهذا النّوع أطلق عليه دوركايم مصطلح **التّضامن العضويّ** "**organic**"، لأنّ التّشاركيّة فيه تقوم على التّمايز الفرديّ، الّذي ينتج عنه تقسيم العمل بينهم بطريقة عمل أعضاء الكائن الحيّ، واعتمادهم على بعضهم البعض لمواجهة احتياجاتهم(أنطوني غدنز، 2005، ص137، 139).

وما نلاحظه أنّ الجامع بين كلا الفئتين هو ضرورة البقاء الّتي تحدّد ملامح هذه العلاقات أو تلك، ويمكن أن نوضّح هذه الثّنائيّات المتضادة في ما يلي(مصطفى الخشاب، 1975، ص68، 69):

– المجتمع المحلّي مجموعة محدودة النّطاق، أمّا المجتمع فهو أوسع من ذلك.

– المجتمع المحلّي يحتكم إلى العادات والتّقاليد والأعراف، بينما يحتكم المجتمع الجديد إلى قوّة القانون والطّبقيّة والرّوابط التّعاقديّة.

– المجتمع المحلّي تميّزه جملة من العواطف والقيم والتّشاركيّة الجمعيّة، أمّا المجتمع الحضريّ فيتميّز بالتّفكير التّقديريّ القائم على المصلحة.

– نواة المجتمع المحلّي هي الأسرة، بينما المجتمع الحضريّ تسود فيه وحدة الجماعة المبنيّة على المصالح الفرديّة والنّفعيّة. وهذا الرّابطة –بحسب تونيز– هي أساس البنية المكانيّة للمدينة.

3– الغنى والفقر: عامل الغنى والفقر أساس ديناميّة المدينة وحركة الأفراد والجماعات فيها، وهذا ينعكس على الشّكل العمراني للمدينة علاوة على النّسيج الاجتماعي فيها، فتبرز الأحياء الرّاقية في مقابل الأحياء الشّعبيّة، وقد تصل إلى الأحياء المعدمة أو القصديريّة أو أحياء الصّفيح في أطراف المدينة، وخاصّة في المدن العربيّة، النّاتج عن النّزوح، والنّزوح نفسه عامل ومظهر ضروريّ في تشكّل المدينة عمرانيا واجتماعيا وثقافيا وحضاريا، وإضفاء تكتّلات وتجمّعات تزيد في بلورة مبدإ

التّناقض، وتساهم في تشكّل المدينة بقسط كبير بغضّ النّظر عن كونه سلبيا أو إيجابيا. وهذه التّكتّلات المبنيّة على العصبيّة داخل المدينة الواحدة لاحظها علماء الاجتماع، فقد أوضح جيرالد بريز "Breese" أنّ البناء الحضريّ للمدينة الهنديّة الكبيرة يتألّف من: الأحياء الوطنيّة القديمة، الأحياء الأجنبيّة الحديثة، ومناطق الإسكان الحكوميّ، وأحياء الصّفيح والجيوب الرّيفيّة(جيرالد بريز، 1972، ص116)، وهذه البنية في الحقيقة هي ميزة أغلب المدن القديمة الّتي تعرّضت للاستعمار، دون أن ننسى عامل الازدواجيّة الثّقافيّة النّاتج عن تكوين طبقة مثقّفة في الدّول المتقدّمة ورجوعها إلى بلدانها ممّا يخلق صراع الفرد مع نفسه في الأخذ بالقيم القديمة أو الأصيلة وبين ثقافة دخيلة أو مكتسبة(السّيّد الحسيني، 1981، ص233، 234)، وإضافة إلى ظهور عامل النّزوح هناك يبرز بالموازاة عامل الاستغلال، بمعناه الشّامل؛ الّذي يكون إيجابيا بظهور معانٍ جديدة في بنية المدينة، كالمِهن المناسبة لذلك، ومنها المهن المنتجة كالحرف بمختلف أنواعها وما يعقب ذلك من تنافس لتحسين المستوى العلمي، فِرارا من المهن الممقوتة أو الشّاقّة كالبناء ونحوه، وفي الحقيقة لا بدّ من وجود هذا العنصر لتحقيق حكمة التّعمير والبناء، وعندها يكون العَقْد بين النّاس هو الحاجة، ومنه فالاستغلال هو من مقتضيات الحاجات الضّروريّة والكماليّة في المجتمع، فالغنيّ يحتاج إلى يد العاملة المؤهّلة، ولا غِنى له عن الفقراء في ذلك لتأدية مشاريعه، والفقير يحتاج إلى الوظائف عند الأغنياء لضرورة البقاء، وهذه الحاجة هي ضروريّة في العمران البشريّ كما ذهب إلى ذلك ابن خلدون؛ وإن كان ازدهار المدينة عنده مرتبطا بقوّة الدّولة والإمبراطوريّة كما عند بوتيرو أيضا "Botero"(السّيّد الحسيني، 1981، 40، 41)، –ويرى مومفورد "Mumford" بأنّ المدن تاريخيا لا تفهم إلا كأماكن للحماية وأنّ عامل المنعة والعزلة "inaccessibility" هو الأساس فيها وليس الحركة والاتّصال "accessibility"–، ولولاه لانقطعت مادّة حياة المدينة؛ وفي الآية الكريمة: (وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) [الزّخرف: 32]، فهذه الحاجة هي رحمة لأنّها مادّة بقاء الحياة وبناء المجتمع المدني، ومن نتائجه نشوء المدارس الخاصّة والمتخصّصة ومعاهد التّكوين المهني لتأهيل اليد العاملة، ونشوء البنوك والمصارف وما إليها لتمويل الأغنياء. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ عامل الاستغلال يتبعه مظاهر سلبية، فبمقابل المجتمع النّشيط هناك المجتمع الانتهازي، ولهذا فعامل **الانتهازيّة** ضروريّ في تسمية المدينة، فهي تقلّ في البوادي والقرى وتزداد كلّما ازداد التمدّن والتحضّر، كلّما اتّسعت

اتّسع معها، ويكون غالبا من شذّاذ الآفاق الّذين يقلّ فيهم وازع الأخلاق والحياء، ونتيجة لذلك يظهر لنا مجموعة من المظاهر الأخلاقية والاجتماعيّة وتظهر بمقابلها مهن تناسب ذلك، كالتّسوّل والبغاء والتّخنّث واللّصوصيّة ونحوها، والبناء الاقتصاديّ الحضريّ عند بيري "Berry" في الشّرق الأوسط يتألّف من ثلاثة قطاعات أساسيّة: الأوّل العمال غير المهرة كالباعة الجائلين وعلى الرّصيف والعمال الموسميّين والبغايا والمتسوّلين واللّصوص وفيهم تتركّز غالب الآفات الاجتماعيّة، ويشكّلون نسبة معتبرة قد تصل إلى أربعين بالمائة 40% من مجموع القوّة العاملة، والثّاني أصحاب الحرف اليدويّة والمشاريع التّجاريّة الصّغيرة، والثّالث أصحاب المشاريع الصّناعيّة والتّجاريّة ورؤوس الأموال، إضافة إلى عمّال المؤسّسات الحكوميّة والمهن العليا كالطب والمحاماة والهندسة والتّدريس الجامعيّ(السّيّد الحسيني، 1981، ص302).

وهو أيضا ما يخلق تناقضا آخر في كفاءة العمل أو اليد العاملة، عدّها السّيّد الحسيني "ازدواجية" سلبيّة تخلق الكثير من المشاكل، ويعاني الاقتصاد بسببها، وذلك حينما تتعايش الأساليب الإنتاجيّة الحديثة مع الأساليب الإنتاجيّة القديمة(السّيّد الحسيني، 1981، 306).

وشكّلت ظاهرة الفقر موضوعا مثيرا لعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيا وللدّارسين والباحثين، إلى درجة أنّ أوسكار لويس "Oscar Lewis"؛ أطلق عليها مصطلح "ثقافة الفقر" " culture of poverty"، لاحتوائها على مجموعة من العناصر والظّواهر؛ مثل انتشار الأمية، والآفات الاجتماعيّة، والمشاكل الأسريّة، والافتقار إلى الخصوصيّة داخل المسكن، وتمركز الأسرة حول الأمّ، وكثرة اللّجوء إلى العنف، وانتشار عقدة الاعتزاز المفرط بالذّكورة، وهي نتائج توصّل إليها لويس بعد دراسات ميدانيّة قام بها على مجموعة من أسر الأحياء المتخلّفة في بورتوريكو، وبالتّالي فالفقر يخلق ثقافة خاصّة به، ورغم الانتقادات الّتي وُجّهت لهذه الأبحاث إلّا أنّه استطاع يُلفت الأنظار إلى أهمية مفهوم ثقافة الفقر في فهم الكثير من الظّواهر الحضريّة(رالف بيلز، وهاري هويجر، 1976، 877/2)، وبالتّالي التّفاعلات الحاسمة في دينامة نشاط المدينة نشأة ونموّا وازدهارا. ونستطيع أن نعتبر كارل ماركس أقام ملاحظاته حول المدينة في الغرب على أساس هذه المفارقة أو الثّنائيّة (الغنى/ الفقر)، وعلى الأخصّ التّناقضات داخل المجتمع الإقطاعيّ وظهور المجتمع الرّأسماليّ(السّيّد الحسيني، 1981، ص113)، ويذهب ماكس فيبر "Max Weber" (1864م-1920م) في مقاله الشّهير (The city) سنة 1921م، يرى بأنّ العنصر التّجاريّ ضروريّ في

ديناميّة نموّ المدينة والتّحضّر، والمجتمع الحضري الكامل –كما اصطلح عليه– يرتكز أساساً على العلاقات والتّبادلات التّجاريّة، والملاحظ أنّ نشأة أيّ مدينة في التّاريخ واتّساعها ينبني على حركة المال والتّجارة؛ وفي الحقيقة فإنّ الكثير من المدن قديماً وحديثا كان مولدها وتطوّرها سبب عامل التّجارة والأسواق، فلا يمكن لأيّ مدينة كانت أن تكتفي ذاتها، وهي بحاجة إلى فضاء لهذه التّعاملات وهو السّوق، وبالتّالي فالسّوق هو مقياس نبض حياة المدينة، وفي الحقيقة تنبّه له ابن خلدون وأطال الحديث فيه في (المقدّمة)، يُضيف فيبر عنصر آخر لبناء المدينة هو الاستقلال الذّاتي، تتجلّى عنده في بعض المؤسّسات كالمحكمة والقانون التّعاقديّ.

ويرى دوركايم بأنّ الزحام السكّاني أو الكثافة السّكّانيّة محفّز لظهور التّناقضات على مستويات عدّة، ومن ضمنها استظهار تنوّعات ثقافيّة متباينة، يستلزم أن تكون ثمّة تنظيمات جديدة تستوعب الحاجات المتجدّدة، وهو بهذا يطرح نشوء مجتمع قائم على تضامن عضويّ، أو "الجماعة المحليّة"، الّتي تكون لها القدرة على استيعاب التّنوّعات والتّضاربات الثّقافيّة، واحتواء الصّراعات المحتملة، ويتيح إيجاد نقاط مشتركة الّتي تصير فيما بعد ما يُصطلح عليه بـ "**التّماسات الثّقافيّة**"، وبالتّالي فالعمل عند دوركايم هو أساس التّحضّر والتّمدّن. ونشير هنا إلى أنّ كثير من الدّراسات الميدانيّة الّتي قام بها علماء الاجتماع الحضريّ انطلقت من ظاهرة الفقر في المدن، من أولاها بحث قام به تشارلز بوث Ch. Both حول مدينة لندن سمّاه: "حياة وعمل سكان مدينة لندن" "Life and labor of the people of London" سنة 1891م، بينما توجّهت كثير من الدّراسات إلى دراسة المدن الصّغيرة المعزولة وخصوصا في أمريكا، وأثر النّشاط الزّراعي على تكوين هذه المدن، نحو دراسة "الميدلتون" الّتي قام بها كلّ من روبرت وهيلين ليند Robert and Helen Lynd حول مدينة مونسي بولاية أنديانا، وقد تتّبعا تطوّر المدينة بدراسة أولى، ثمّ دراسة ثانية بعد عشر سنوات لاسيّما بعد أزمة الثّلاثينات الاقتصاديّة، فأصدرا "الميدلتون المعدّل" سنة 1937م، والّتي ركّزت على توزيع القوّة والتّأثير داخل المجتمع المحلي، وخلصت إلى كيفية سيطرة الأسرة الواحدة على السّلطة السّياسيّة والاجتماعيّة وعلى اليد العاملة، ليضعا حجر الأساس في توجّه الدراسات الاجتماعيّة الحضريّة نحو المحاور السّياسيّة، وخلصا إلى وجود طبقتين رئيسيتين في البناء الاجتماعيّ للمدينة؛ الأولى طبقة رجال الأعمال، والثّانية الطبقة العاملة، حيث تؤدّي كلّ منهما وظائف محدّدة إلى حدّ ما(السّيّد الحسيني، 1981، ص 69).

ثمّ نسجت على منوالها عديد الأبحاث مثل دراسة مدينة يانكي سيتي Yankee city، لمؤلّفها لويد وارنر Loyd Warner مع فريق من الباحثين في مدينة بلغ عدد سكّانها 19000 نسمة، واكتفى فيه على الاعتماد على معيار الطّبقية أو متغيّر الطّبقة دون غيره لوصف الظّواهر الاجتماعيّة، وركّز على تناقضات سطحيّة وبسيطة ما بين الطّبقات الاجتماعيّة المختلفة، ولذلك لم تستحسن دراسته كثيرا(محمّد عليّ محمّد، 1979، 155/1، 156)، ويعدّها السّيّد الحسيني من الدّراسات الحضريّة الشّاملة برغم الانتقادات الموجّهة له، وقد توصّل فيها إلى تحديد الطّبقات الاجتماعيّة الأمريكيّة وفق معاييره، وسجّل ملاحظات حول خصائص كلّ طبقة وسلوكياتها(السّيّد الحسيني، 1981، ص 69).

ومن أهمّ المحاولات الّتي أرادت أن تفصل بين ثنائيّة الحضر/الرّيف؛ محاولة سوركوين وزيمرمان، تتلخّص محاولتهما في اعتبار معيار "المهنة" محكّا أساسيّا وأوّليا لمعرفة خصائص كلّ من المدينة والرّيف، وباقي المعايير تأتي تبعا لهذا المعيار، وهي البيئة، وحجم المجتمع، وكثافة السّكّان، والتّجانس والتّغاير، والتّمايز الاجتماعي والطّبقيّة، والحراك والتّنقّل، وأنساق التّفاعل.

ويماثله ريدفيلد وثنائيّته ريفي–حضري، وقام بدراسة ميدانية، وضع بعضها في كتابه " The folk culture of Yucatan"، لاحظ فيها مجموعة من المتغايرات واللاتجانس؛ وهي سمات الحضريّة الواضحة، وهذا يعود إلى تنوّع الجماعات العرقيّة في المدينة، كما أشارت الدّراسة اختلاف في المكانة الطّبيعيّة والسّكنيّة والتّعليميّة والمعيشيّة، وبقدرها يكون حجم درجة الحراك أو التّنقّل الاجتماعيّ والفيزيقيّ والمهني، كما لاحظ ريدفيلد في دراسته الميدانيّة أنّ القرى المعزولة (قرية توسيك) تتميّز بالانسجام والاستقلال التّام عن السّلطة العامّة، ولها زعامة محلّيّة؛ وهي ما يعرف بالسّلطة التّقليديّة عند فيبر، وخلص ريدفيلد إلى أنّ خصائص التّحوّل إلى الحضريّة هي ثلاثة: زيادة التفكّك الاجتماعي، وتزايد العلمانيّة في مقابل ضعف فاعليّة المقدّس، وزيادة انتشار الفرديّة، ويربط ويرث ضعف العلاقات الاجتماعية في المدينة إلى نموّ السّكّان وتباينهم بحيث يستحيل أن يعرف الفرد كلّ الأشخاص، فيستدعي ذلك علاقات سطحيّة وعابرة، ويربطه أيضا بالعمل، بحيث يكون الهم هو الوصول إلى الإنتاج بأسرع ما يمكن وسيتدعي بدوره سلوكات وآداب معيّنة، وهو أيضا ما يتسبّب فيما عُرف بالنّموّ الدّيمغرافي وقضايا الأسرة والمجتمع.

4- البذخ والتقشّف: ومن مقتضيات الغنى والفقر وجود حياة البذخ والتّرف، ووجود المقتنيات الفخمة من سيارات وآلات والأحياء الرّاقية، ويصحبها غالبا اللّهو والمجون ونحوها، وينتج عنها التّعالي وبعض السّلوكيات الخاصّة بها، فالتّناقض والتّصادم شرط في وجود المجتمع المدني، وفي الآية الكريمة: (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ) [البقرة: 251]، وتُناقِضُه حياة التّقشّف والخصاصة، وينزوي أهل ذلك غالبا في الأحياء الفقيرة ويشكّلون الغالبية، في الأحياء الشّعبية وعلى أطراف المدينة، ويفتقرون إلى أبسط مقوّمات الحياة، على درجات متفاوتة بين كلا المجموعتين، وهو ما ينشأ عنه ظاهرة التّديّن والتّصوّف، فغالب المتدينين من طبقة الفقراء، وكردّ فعل منطقيّ للبذخ والتّرف والإسراف يظهر التّصوّف عنصرا فعّالا في إحداث التّوازن بين طبقات المجتمع.

وهذا ما ذهب إليه أولمان "Ullman" وهاريس "Harris"، في منتصف الأربعينات إلى القول بتعدّد النويات في نموّ المدينة، "فهناك النّواة الرّئيسيّة في مركز المدينة وهي منطقة النّشاطات التّجاريّة والخدمات الرّئيسيّة، وهناك نواة تجارة الجملة والصّناعات الخفيفة بالقرب من النّواة الرّئيسيّة، كذلك توجد نواة الصّناعات الثّقيلة على أطراف المدينة، وحول هذه النويات تتوزّع مناطق سكنيّة متنوّعة بعضها للدّخل المحدود والبعض الآخر للدّخل المتوسّط وبعض ثالث للدّخل المرتفع، أمّا مناطق الضّواحي فتمثّل نطاقا انتقاليا بين البيئة الحضريّة والبيئة الرّيفيّة"(السّيّد الحسيني، 1981، ص140، 141).

وهذا في الغالب عند استحكام الحضارة –بحسب ابن خلدون– وتطوّرها، فبقدر انصهار العصبيّات القديمة ونشوء المجتمع الجديد؛ الّذي ينعقد الاجتماع فيه على أساس المصلحة، وبالتّالي فالمصلحة قناة ضروريّة في التّواصل بين طبقات المجتمع المختلفة، ويتبعه بطبيعة الحال اللّهو والموسيقى والغناء كنتيجة حتمية للتّرف، وما يعقبه من طالبي الرّزق من ذلك كالمغنّين ونحوهم، فيما يناقضه من وجوب ظهور التّقشّف والزّهد والتّصوّف كنتيجة حتمية للفقر والخصاصة، وكضرورة لاتّزان المدينة بظهور التزهّد في مقابل البذخ. وفي هذه الصّدد لاحظ ميشال يونج ووبيتر ويلموث عند دراستهما للأسرة والقرابة في شرق لندن سنة 1957م قضية أطلقا عليها "المجتمع المحلّي الأمومي"، تكون السّلطة فيه للأمّ، لعدم ملاءمة المبرّرات التّقليديّة، فمع التّطوّر الصّناعي بقيت العائلة الممتدّة ولكن في شكل مختلف؛ تكون السّلطة فيه للأمّ حتّى على أحفادها؛ لاسيّما في مجال

تربية الأطفال، ويرى ثورشتاين فاربلان Thorstein Verblen، في نظريّته عن الطّبقة المترفة أنّ نشوءها ازداد مع تطوّر المجتمع الصّناعيّ؛ إذ يرى أنّ في المدينة الصّناعيّة المتطوّرة تصبح السّلطة فيه للمال، وبالتّالي ظهور الاستهلاك والفراغ كميزتين بارزتين في المدينة؛ وهما من الوسائل المحبّبة إلى النّاس من أعلى السّلّم الاجتماعيّ إلى أدنى درجة، وهذا الخضوع لهذا النّمط من الحياة فرضته حياة المدينة على الأفراد(ثورشتاين فيربلن، دس، 58، 59).

5- الالتزام والانحلال: أو التّديّن ولا التّديّن، وأيضا الدّين والعلمانيّة، وهو حقيقة واقعة في بنية المدينة، وإن كان من لوازمه الصّراع والإقصاء، ويُقابله التّعايش والتّسامح كضرورة لبقاء البنية الاجتماعيّة للمدينة، فذلك الصّراع وإن كان سلبيا ومذموما كونه عامل تخريب للبنية الاجتماعيّة فهو ظاهرة صحّيّة في التّمدّن، وما يعقبه من دينامية البحث عن العلاج، وظهور مصطلحات الحوار والتّعايش والتّسامح، وهو يؤسّس أيضا لما افترضناه من وجوب وجود عنصر التّناقض كضرورة حتميّة للقول بمدنية المجتمع.

وكما زعمنا فإنّ ذلك التّصادم أو التّناقض الضّروريّ في دينامية المدينة، لا يقتصر على التّناقض بين مجموعتين كبيرتين وهما المتديّنون واللامتديّنين، ثمّ هذه التّناقضات والتّجاذبات والأخذ والرّدّ والتّأثّر والتّأثير يساهم في ما أُصطلح عليه بالتّثاقف والمثاقفة، وأيضا تلك الدّينامية ضرورية في كلّ مجموعة على حدة، ففي المتديّينين تجد الطّوائف والمذاهب ومختلف المشارب، حيث يلاحظ وجود ثنائيّة التّقليد والتّجديد في الخطاب الدّيني، على سعة هذين المصطلحين وما يؤسّس له من تيارات فكريّة ومذهبيّة مختلفة، والدّين في أصله ظاهرة اجتماعيّة عند إميل دوركايم(عبد اللّطيف الصّنيع، 1999، ص 24)، ويميّز علماء الاجتماع بين التّديّن الشّعبويّ والتّديّن الرّسمي، وبدوره خضع التّديّن لدينامية المجتمع ففي مرحلة الثمانينات والتّسعينات مثلا كان التّديّن السّياسي في عزّ أيّامه في أغلب الدّول العربيّة، بينما تراجع هذا المدّ ليحلّ محلّه الإسلام المعولم على حدّ تعبير أوليفييه وروا؛ إذ صار خاضعا لمنطق الفردنة والسّوق اللّيبيراليّة الّتي تتشكّل فيها سوق دينيّة وتظهر أشكال تديّن بحسب الطّلب(هنوس ناذر، 2016، ص129).

كما نجد ذلك بين فئة اللامتديّنين، تصل كما هو ملاحظ إلى التّناقض والتّصادم فيما بينها، وهو ضروريّ أيضا لبلورة المفاهيم واستمرار قيم الحوار والحضارة، الّتي هي في نهاية المطاف ضرورة للمتشاركين في تكوين كلّ فئة وكل بيئة، وبالتّالي ضرورة في دينامية بنية المجتمع المدني، فيما

سيعبّر عنه بالأحزاب والجمعيات الفكريّة والثّقافيّة والسّياسيّة. وهي مظهر أو لازم من لوازم التّناقض والاختلاف والتّصادم الّذي يُميّز كلّ مدينة في المجتمع البشريّ، وفي هذا السّياق يقول عزمي بشارة: "إنّ التّمايز النّاجم عن التّمدّن يفرز في الدّين أنماطا من التّديّن ومؤسّسة دينيّة وتديّنا شعبيا"(عزمي بشارة، 2013، 424/1)، وهذا ما جعل من الظّاهرة الدّينيّة أكثر الظّواهر غموضا واستثارة لعلماء الاجتماع والأنتروبولوجيا والفلسفة، وموضوعا خصبا وديناميّا غير قابل للضّبط، وخاصّة في المجتمعات الشّرقيّة بكلّ تناقضاتها وتعقيداتها. وبهذا أيضا نفهم انطلاق جاك بيرك في الثّلاثينات والأربعينات من القرن الماضي في دراسته السّوسيو–أنتروبولوجيّة للحواضر المغربيّة من الأرياف ومن دراسة فقه المعاملات خاصّة؛ باعتباره مظهر عامل الدّين والتّديّن وبالتّالي فهم الانتقال من البداوة إلى الحضارة في المجتمع المغربي(جاك بيرك وآخرون، 2012، ص41)، وعامل الدّين واللادين هو أساس الطّائفيّة في المدن الكبرى، وهي في كثير من الأحيان أساس تنامي المدينة أو انهيارها أو تغيّر نمط الحياة فيها، وبالتّالي توزّع الفضاء المادّيّ والثّقافي والسّوسيولوجي إلى فضاء مبني على هذه التّضاد بين مصطلحي المقدّس والمدنّس، فماكس فيبر مثلا قد أوضح في كتاباته الدّور الّذي لعبته البروتستانتيّة في نشأة الرّأسماليّة وما صاحبها من ظواهر كالتّصنيع والتّحضّر، والدّين عنده لا يؤدّي دور التّماسك والتّضامن فقط؛ بل له دور المثير والمحفّز القادر على إحداث التّغيير والتّطوّر الاجتماعيّ(هنوس ناذر، 2016، 89، 90)، وهو ما تنبّه له أيضا بيير بورديو "Pierre Bordieu"، في دراسته للمجتمع الجزائري الكولونيالي، وأنّ الحقل الدّينيّ له دينامية مؤثّرة في تشكيل المجتمع والانتماء الطبقي، وكذلك الشّأن في المدينة العربيّة، فإنّ اختلاف الجماعات بقدر ما أسهم في الخراب والفوضى أحيانا ساهم أيضا في ازدهار الحياة الفكريّة والأدبيّة أو في تطوير ونشر ثقافة حضريّ (جمال حمدان، 1964، 109).

وإذا ما عدنا مثلا إلى أرنست برجس (1886م–1966م)، فهو عالج مصطلحي المجتمع "society" والمجتمع المحلّي "community" من خلال التّحليل الإيكولوجي بأنّ المجتمع المحلّي هو المظهر المكاني للجماعات الإنسانيّة، ولم يتعاط معه باعتباره حقلا سكونيا إستاتيكيا، وإنّما اعتبره عمليّة ديناميكيّة تتجسّد بشكل واضح في نموّ المدينة، وهذا هو المحور الرّئيسي في البحث عنده، ولذلك جاء بمصطلح الحراك أو التّنقّل كمؤشّر لفهم هذه العملية الإيكولوجيّة –أي نموّ المدينة–(كامل المراياتي، 1992، ص 114).

والمدينة في تاريخ الإسلام كانت تتّسع حول المباني الدّينيّة أو المسجد، وإذا نظرنا في التّاريخ الإسلامي فإنّ أوّل مدينة إسلاميّة هي المدينة المنوّرة؛ وقد سُمّيت باسم المدينة، كان المسجد النّبويّ مركزها الّذي يلتقي فيه كلّ أفراد المسلمين، تُعالج فيه كلّ قضاياهم السّياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة (السّيّد الحسيني، 1981، ص44). وقد لاحظ الدّارسون أنّ الغالب في النّمط المعماري في المدينة يرتكز على مركزيّة المسجد وأنّ باقي أسوار النّسيج المعماريّ يكون بالموازاة معه، ومنها ما لاحظ بيير بورديو ذلك في منطقة القبائل بالجزائر (Pierre Bourdieu, 1972, p41).

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم.**
- إدريس عزام وآخرون(2010)، **المجتمع الرّيفيّ والحضريّ والبدويّ**. القاهرة: الشّركة العربيّة للتّسويق.
- ثورشتاين فيربلن(دس)، **الطّبقة المترفة**. ترجمة: محمّد محمود موسى، مراجعة: إبراهيم سعد الدّين، القاهرة: الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة.
- جاك بيرك وآخرون(2012)، **أنتروبولوجيّة المغرب**. مجلّة التّدوين، ع2، ديسمبر 2012.
- جمال حمدان(1964)، **المدينة العربيّة**. جامعة الدّول العربيّة، القاهرة: معهد البحوث والدّراسات العربيّة.
- جيرالد بريز(1972)، **مجتمع المدينة في الدّول النّامية**. ترجمة: محمّد الجوهريّ، القاهرة: دار نهضة مصر.
- رالف بيلز وهاري هويجر(1976)، **مقدّمة في الأنتروبولوجيا العامّة**. ترجمة: محمّد الجوهريّ والسّيّد الحسيني، القاهرة: دار نهضة مصر للطّباعة والنّشر.
- السّيّد الحسيني(1981)، **المدينة دراسة في علم الاجتماع الحضريّ**. ط2، القاهرة: دار المعارف.
- عبد الرّحمن ابن خلدون(2004)، **مقدّمة ابن خلدون**. بيروت: مؤسّسة الكتاب العربيّ.
- عبد اللّطيف الصّنيع(1999)، **التّدين علاج الجريمة**. ط2، الرّياض: مكتبة الرّشد.
- عزمي بشارة (2013)، **الدّين والعلمانيّة في سياق تاريخي**. ط1، بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسات.

- غدنز أنطوني(2005)، **علم الاجتماع**. ط1، ترجمة وتقديم: فايز الصباغ، بيروت: المنظمة العربيّة للتّرجمة.

- غريب أحمد والسّيّد عبد العاطي السّيّد(1988)، **علم الاجتماع الرّيفيّ والحضري**. الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة.

- كامل المرایاتي(1992)، **النّموّ الحضريّ وأثره في البناء الإيكولوجيّ لمدينة بغداد**. أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد.

- محمّد الجوهريّ(1977)، **البناء الطّبقيّ في الدّول النّامية**. دراسات في التّنمية الاجتماعيّة، القاهرة: دار المعارف.

- محمّد عليّ محمّد(1979)، **علم اجتماع التّنظيم**. الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة.

- مصطفى الخشاب(1975)، **علم الاجتماع ومدارسه**. القاهرة: دار المعارف.

- هنوس ناذر(2016)، **التّديّن في أوساط الشّباب الحضريّ –مقاربة سوسيو–أنتروبولوجيّة**. إشراف: سواريت بن عمر، جامعة وهران2: قسم علم الاجتماع.

- وزيري يحيى(2004)، **العمارة الإسلاميّة والبيئة**. سلسلة عالم المعرفة، ع149، الكويت: المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب.

- Pierre Bourdieu(1972). **Esquisse d'une théorie de la pratique**, Genève: librairie droz.

- Pierre Bourdieu(1972). **Sociologie de l'Algérie**, Alger: Editions Dahleb.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA:

بنيرد حاج ، (2022)، **التّضاد والتّوافق الاجتماعيّ وأثره في النّموّ الحضريّ** ، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية ،المجلد 15 (العدد 02)، الجزائر : جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص187-203.